

الفصل الأول

الطفولة وطبيعة الطفل

معنى سيكولوجية الطفل :

« سيكولوجية الطفل » كلمتان تطويان معاني كثيرة خطيرة الشأن عظيمة القيمة للجمع البشري ولهاتين الكلمتين ميدان فسيح ، فكل ما يدخل تحت النمو الجسمي والنفسي والعقلي في الفترة الواقعة بين الحمل والبلوغ يعتبر من حقل أبحاث سيكولوجية الطفل. هذا تفسير يحمل أمان تفصيله فيبين أن سيكولوجية الطفل تبحث عن الموضوعات الآتية :

النمو العقلي واللغوي والحركي والجسمي والوجداني والاجتماعي والديني للطفل ، ويندرج تحتها أيضا كل ما يختص بسلوك الطفل وتصرفاته وألعابه المختلفة وحركاته وسكناته وعاداته ومزاجه وخلقه. لكن يجب أن نلاحظ هنا أن الطفل يكون وحدة ، وحدة كاملة ، وليس مجرد أجزاء منفصلة جمعت أو وظائف مختلفة إرتبطت واجتمعت في صعيد واحد وفي جسم واحد .

وغنى عن البيان أنه كلما فهمنا نمو الطفل فهما صحيحا لا لبس فيه ولا غموض ، كلما أمكننا أن نراقب نموه وأن نعمل على تنميته في جو مناسب ملائم بعيد كل البعد عن عوامل الكبت والضغط

(وأثارهما السيئة معروفة) حال من مشيرات الشذوذ ، حتى يمكنه أن ينمو نموا صحيحا عاديا .

ومما يزيد من قيمة معرفتنا بطبيعة الطفل ونفسيته أنه مرن قابل للتشكيل والتغيير . سهل الانقياد والاستهواء ، فيمكننا أن نحدث به بعض التبديل وأن ننشئه على ما نرغب ونريد (إلى حد ما) . فينشأ مع الجماعة خاضعا لقوانينهم وتقاليدهم وعرفهم وهذا هو الإنسان في المجتمع وهو سر تماسكه ولولاه لكان مجتمعا منحللا مفككا . ولذلك نقول بحزم وتأکید إن مرونة الطفل هي من أوائل العوامل التي تمكن من التقدم البشرى .

أهمية دراسة سيكولوجية الطفل :

إننا نتطلب وننتظر من النماهي أن يعرف طبيعة المواد التي يطهيها ومن الكيميائي أن يلم بخواص المواد التي يقوم بتركيبها ، ولا بد إذن لمن يعملون مع الأطفال أن يلموا بطبائعهم وأن يقفوا على نفسياتهم وأحوالهم . فمعرفة سيكولوجية الأطفال ضرورية ولازمة للمربين والمربيين ورجال التعليم عموما والممرضات والإخصائيين الاجتماعيين ، وغيرهم .

وقد يعترض البعض على ضرورة إلمام هؤلاء بسيكولوجية الطفل مكثفين بأن يعرفوا طبيعة مهنتهم . لكن هذا ليس كافيا فقد يجوز أن يلم شخص بطريقة قيادة سيارة ولا يتحتم عليه أن

يعرف ميكانيكية الآلة (الموتور) . هذا صحيح ، لكن السيارات تشابه كلها تقريبا في ميكانيكيتها ولا يوجد اختلاف كبير بينها أما البشر فبينهم اختلافات واضحة جلية ، هذا علاوة على أن أعطال السيارات محددة معروفة ، أما الانسان فكل فرد يختلف كثيرا عن غيره ، وكل قضية خاصة لها حلها الخاص بها .

ولذلك كان من الضروري على كل من يعمل مع الأطفال أن يقف على فهم سيكولوجيتهم وطرق ومراحل نموهم وتفكيرهم . . فإذا أراد المدرس مثلا أن يثبت النظام في الفصل أو المدرسة فلا يكفي أن يصدر أوامرا وتعليمات ويصر على تنفيذها متغاضيا ومتناسيا وجود نزعات وميول وإنفعالات عند الأطفال يجب مراعاتها قبل أن يحتم عليهم الخضوع لأمر والرضوخ لقانون : وإلا لكانت طريقتنا في التربية خاطئة من أساسها وفي حاجة ماسة إلى تعديل شامل كامل .

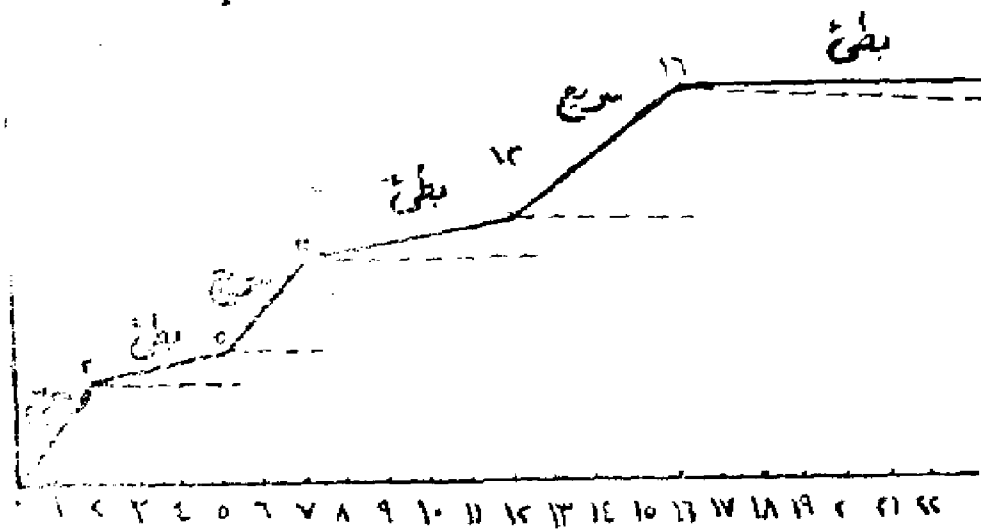
مراحل النمو عند الإنسان :

تبدأ حياة الطفل من الناحية البيولوجية من ساعة الحمل ويتأثر لذلك نمو الجنين بالحالة التي تكون عليها الأم أثناء الحمل . وعندما يولد الجنين يجد نفسه في عالم يغير تماما العالم الذي كان يعيش فيه وتبدأ حينئذ عملية تفاعل بينه وبين البيئة الجديدة التي وجد نفسه فيها ، فهو إذن في حالة نشاط دائم مستمر . وهو منذ الولادة

وتتبعها فترة التثبيت والنمو البطيء التي تستمر إلى العشرين .

٢ — ويرى الأستاذان كولنز و دريفر Collins & Drever^(١) أن

النمو الجسمي والعقلي ، يحدث كل منهما بالتبادل ، ويتبين هذا من مظاهرهما في حياة الفرد ، وعلى هذا يقسم النمو إلى ما يأتي :



العمر (بالسنوات)

شكل (١) بين وفيات النمو وفترات التثبيت

(أ) المرحلة التي تشمل الـ ١٨ شهرا الأولى وفيها تظهر الوظائف الحيوية الضرورية للفرد وتقوى كالبصر والسمع والمضغ والمشي وبدء الكلام .

(ب) مرحلة نمو عقلي من سن ١٨ شهرا إلى أربع سنوات .

(ح) مرحلة نمو جسمي من ٤ — ٧ سنوات .

(١) أنظر : الدكتور عبد العزيز عبد المجيد والأستاذ صالح عبد العزيز :

التربية وطرق التدريس ج ١ : ص ٨١ — ٨٢ .

(د) مرحلة نمو عقلي من ٧ — ١١ سنة .

(هـ) مرحلة نمو جسمي من ١١ — ١٤ سنة .

(و) مرحلة نمو عقلي من ١٤ — ١٧ سنة .

٣ — قسم جرین G. H. Green عند دراسته لأحلام اليقظة
مراحل النمو إلى أربعة أقسام أساسية بحسب الإهتمام الرئيسى الذى
يشغل الفرد وهى :

(أ) مرحلة التغذية ، وهى تمتد من الولادة إلى السنة الثالثة

(ب) مرحلة نمو الفردية ، أو نمو الذات ، وتمتد من الثالثة .

إلى العاشرة .

(جـ) مرحلة نمو الإهتمام بالجماعة من رفاق وما شابه ، وتمتد

من العاشرة إلى الثالثة عشرة .

(د) مرحلة نمو الإهتمام بالنواحي الجنسية وتمتد من الرابعة

عشرة إلى ما بعد ذلك .

ثم هو يقسم كل مرحلة من هذه إلى ثلاث مراحل ، وهى

مرحلة عدم الإهتمام ثم مرحلة الصعوبة ثم مرحلة الثقة
والإستقرار^(١) .

وهناك تقسيم فرويد Freud الذى جعل الإهتمام الجنسى الغالب

(٢) أنظر : الدكتور عبد العزيز القوصى : أسس الصحة النفسية (الطبعة

الثالثة) ص ١٤٤ — ١٤٥ .

أساس التقسيم: فيرى أنه توجد قبل المراهقة مرحلة اللذة الذاتية (Auto-erotic stage) وفيها يشترك الطفل لذة من مختلف اجزاء جسمه ، ولا سيما الأجزاء ذات الفتحات المغطاة بالأغشية المخاطية ثم مرحلة عشق الذات (Narcissistic stage) ، ثم مرحلة حب الطفل للوالد من الجنس المخالف ، ثم مرحلة الدور الكامن (Latency stage) ، وبعد انتهاء مرحلة الدور الكامن في سن المراهقة تتكرر المراحل السابقة كلها بصورة أخرى أكثر تركيزاً حول العضو التناسلي . هذا إذا أدمجنا نواحي النمو الجسمي المختلفة تبعاً لمناطقها في الجسم وتبعاً لموضوعاتها بحسب رأى أتباع فرويد إذ أن فرويد نفسه لم يضع مراحل مفصلة ، إلا أن أتباعه لهم محاولات عديدة في هذا الاتجاه . هذه هي بعض تقسيمات مراحل النمو عند الإنسان وسنأخذ بتقسيم الدكتور عبد العزيز القوصى الذى يرى فيه أن تقسم مراحل النمو إلى :

١ — سن المهد ، وهو ينتهى فى العادة بالتقريب بعد نهاية السنة الأولى وقبل نهاية السنة الثانية .

٢ — الطفولة الأولى وهى تنتهى تقريباً فى سن الخامسة .

٣ — الطفولة المتأخرة ، وهى تنتهى فى سن الثانية عشرة على وجه التقريب .

٤ — المراهقة أو المراحل الأولى من البلوغ وما قبله مباشرة .

٥ — البلوغ .

معنى وأهمية الطفولة :

لا تطلق كلمة « طفولة » إلا للكائنات الحية فقط ، فلا يمكننا أن نقول طفل سيارة أو طفولة شارع أو طفل منضدة ، لكن يمكننا أن نقول طفل كلب وطفل بشرى . فللكائنات الحية طفولة تبدأ مع مولدها وظهورها ، أما الجراد فلا طفولة له ، ولكن نصفه بالجدّة وإذا طال به العهد والأمد نصفه بالقدم . غير أن طفولة الكائنات الحية تختلف من كائن لآخر : فالأميبا مثلاً وهي أحط الكائنات الحية ، تكاد تنعدم مدة طفولتها^(١) وتطول مدة الطفولة كلما تقدم الكائن الحى فى الرقى ؛ فالطيور بعد أن يفقس بيضها تتولى رعاية صغارها . وهذه الصغار تعتمد على أمها اعتماداً تاماً فى حياة طفولتها القصيرة ، فإذا ما اجتازت فترة الطفولة عالت نفسها ولم تعد بحاجة إلى مساعدة أو معونة من الأم وسرعان

(١) الأميبا حيوان لا يخرج عن كونه كتلة لزجة ليس لها شكل ثابت ، وإذا بلغت حداً خاصاً من النمو بدأت فى الانقسام لتعمل على حفظ نوعها جيلاً بعد جيل : فتستطيل النواة ثم تختنق من وسطها وتنتج نواتين ، ثم يزداد اختناق الأميبا من الوسط تدريجياً حتى يتم انقسامها إلى فردين ويعيش كل منهما مستقلاً عن الآخر ، وهذه هى عملية الانقسام الثنائى . وتكرر هذه العملية ما دامت الظروف مناسبة لعيشة الأميبا . أما إذا كانت الظروف غير مواتية فإن الأميبا تفرز حول نفسها غشاء كيتيذاً على شكل كيس أو حوصلة فإذا ما صارت الظروف مواتية خرجت منه لتعاود نشاطها .

ماتركها وتطير إلى آفاق أخرى جديدة لكي تلعب هي دور الأم .
وتطول مدة الطفولة في الحيوانات الثديية عنها عند الطيور ،
وتصل إلى ذروتها عند الطفل البشري ، فمدة طفولته أطول من
مدة طفولة أى كائن آخر .

وفي مدة الطفولة هذه يعتمد الطفل على والديه اعتماداً كلياً
فيما يحفظ حياته ، وفيها يتعلم ويتمرن ويستعد للفترة التي تليها ،
فليست فترة الطفولة مهمة في ذاتها بل لأنها فترة يعبر عليها الطفل
ويجب أن يمر عليها ، ولذلك لا يطالب من الطفل فيها أن يخضع
لمعايير خاصة ومقاييس معينة من السلوك والخلق كالتي يخضع لها
من ترك هذه الفترة للتي تليها . بل نتركه ليستكشف ويتعلم ويختبر .
والطفولة هي الفترة التي نخطئ فيها ونرتكب الكثير من
الهلوات ، والإنسان يتعلم من الخطأ ، ولذلك فمن حسن حظ
البشر أن لهم فترة طفولة طويلة ، وكلما طالت هذه الفترة كلما
كثرت الأخطاء وكلما كثرت الأخطاء كلما كان التعليم أكثر .
والمرابي الماهر هو الذى يحسن استخدام أخطاء الأطفال للوصول
إلى توضيح الصواب ويساعده في ذلك قلة خبرة الطفل ، وأنه
مرن قابل للتعلم سهل الاستهواء .

والمحافظة على الحياة هي العامل المميز في حياة الطفل ، فنجد
حيوان الكانجرو يحمل طفله ويدفع عنه الأذى ، وتمتطى كذلك

أطفال البط ظهر الأم ، وتحيط الدجاجة بأفراخها ناشرة جناحها في رافة وحنان لتدفع عنها الأذى . وإلى جانب هذه الظاهرة — المحافظة على الحياة — نجد ظاهرة أخرى تتمشى معها جنباً إلى جنب ، وهى التعلم . فالحماسة تحمى أطفالها عند الطيران من السقوط ، وتحرك القطة ذيلها حتى تتعود الديسميات الانقضاض على الفريسة ، وتجوب اللبؤة الغابه تتبعها أشبالها في حذرو وتلصص حتى يتمرنوا على الطريقة المجدية لاقتناص الصيد ، فالأطفال هنا يتعلمون . لكن من الخطأ أن نقرر أن الأم تعلم أطفالها الصيد أو التلصص أو الطيران ، لأن كل هذا سلوك غريزي لا يُعلم ، أما مهمتها فتتحصّر في إمداد الأطفال بالفرصة المناسبة للتعلم ، وحتى إمدادهم بهذه الفرصة يعتبر كذلك سلوكاً غريباً عند الأم . ويجب أن نراعى أن فقدان الأم والأب لايعنى أن الطفل لن يتعلم ، بل إنه سيتعلم ولكن ببطء .

كل فرد من كل نوع من أنواع الكائنات الحية يرث تكويننا خاصاً بنوعه عند ولادته ، وتركيب جسمه وتكوينه يحدد سلوك هذا الكائن ، فتكوين الطائر الجسمي يدفعه إلى الطيران وتركيب الدجاجة يجعلها تتحرك على اثنين أما تركيب الكلب فيضطره إلى السير على أربع وتركيب الإنسان يهيئه لأن يسير منتصب القامة ، أما القرد فعليه أن يتسلق الأشجار . ولا أثر للبيئة في هذا السلوك

بل هو أمر غرزي ، ونقصد بكلمة غرزي أنه فطري لا يعلم وأنه ثابت وموجود في أفراد الجنس كله .

إذن فالطفل البشرى أعجز أطفال الكائنات الحية عند الولادة ولذلك : فمدة طفولته أطول من أى كائن حى آخر ، ولهذا السبب كان توالد الإنسان أقل منه عند الحيوان والحكمة هنا واضحة وهى تمكين الوالد من أداء واجبه نحو صغاره .

وحتى مدة طفولة الإنسان تختلف من مجتمع لآخر ومن بيئة لأخرى ، فإذا قررنا أن مدة الطفولة هى المدة التى يقضيها الحدث الصغير معتمداً على والديه (أو من يقوم مقامهما) فى حاجات الحياة الضرورية من مأكل وملبس ومسكن ، فلا شك أن مدة طفولة الإنسان المتحضر المتمدين أطول منها عند الهمجى المتوحش فطفولة المصرى أو الأمريكى أطول منها عند الأقزام^(١) أو قبائل البوشمن^(٢) أو الهنتوت^(٣) . والسبب فى ذلك راجع إلى مطالب الحياة فى البلاد المتمدينة وفى البيئات التى تعتبر حضارتها بدائية .

وحتى فى البيئات المتمدينة نجد فترة الطفولة تختلف فى طولها

(١) يسكن الأقزام الآن فى غابات السكتسو ، ويمتدون شرقاً إلى حدود أوغنده وشمالاً بشرق إلى حدود بحر الغزال وشمالاً بقرب إلى منطقة الكمرون وجنوباً إلى حدود أنجولا البرتغالية .

(٢) يوجد البوشمن فى مستعمرة الكاب وصحراء كلمارى بأفريقيا الجنوبية .

(٣) يوجد الهنتوت الآن فى جنوب غرب أفريقيا شمال نهر الاورنج .

من أمة إلى أخرى ، فنجد مثلاً أن سنى ترك المدرسة الإلزامية في الأمم الراقية أعلى منها عند الأمم الأقل رقياً ، ويصل سن الإلزام أو الإجباز في أمة إلى السنة السادسة عشرة أو الثامنة عشرة في حين أنه لا يتعدى في أمة أخرى الثانية عشرة وربما انخفض عن هذه السن . وظالم الإنسان يتعلم ويعتمد على والديه ولا يعول نفسه ، وهو طفل .

ونجد في الأمة الواحدة اختلافاً أيضاً ، ففي مصر مثلاً لا شك أن مدة الطفولة في القاهرة أو الإسكندرية أطول منها في القرى والدساكر ، فالطفل (عمراً) في المدنية يذهب إلى المدرسة الابتدائية ثم الثانوية أو ما في مستواها ثم قد يطرق أبواب الجامعة ولا ينتهى من دراسته إلا في سن الثالثة والعشرين تقريباً أما طفل القرية فيبعد أن يشب عن الطوق يذهب إلى الحقل ويعمل ويكسب ويمد والده بالمال ، وإن كان قليلاً ، لكنه يعمل لإطعام نفسه على الأقل .

وقد تنبه علماء النفس أخيراً إلى هذه الفترة من مراحل نمو الإنسان ووضعوها في المكان اللائق بها واعتبروا الطفل هو مفتاح فهم البشرية .

أهمية الفعل المنعكس الشرطى :

لقد أعطتنا التجارب التى أجريت على الأطفال ، خاصة بالفعل

المنعكس الشرطي ، معلومات قيمة أنارت الطريق لفهم نفسية الطفل . وتجارب بافلوف Pavlov خير دليل لذلك : فقد أحضر كلباً جائعاً ثم أظهر له شريحة من اللحم فسأل لعابه ، وعند ما أظهر الشريحة دق ناقوساً (لم يتأثر سيلان اللعاب بدق الناقوس) . وكرر هذه العملية عدة مرات (حوالى عشرة مرات) وكان فى كل مرة يقدم الشريحة مع دق الناقوس فيسيل اللعاب . وبعد ذلك أحضر الكلب الجائع ودق الناقوس دون إظهار الشريحة ، وكان هذا وحده كفيلاً بزيادة إفراز اللعاب عند الكلب .

والأطفال كالحیوانات يتعلمون بهذه الطريقة ، فالطفل لاشك يتعلم عدداً كبيراً من الأفعال المنعكسة الشرطية دون أن يكون لديه إدراك لأهميتها وقبل أن تكون لديه القدرة اللفظية للتعبير عما يحول بخاطره من المعانى والأفكار ، فمثلاً يميل الطفل إلى أن يتحسس شيئاً ناعم اللمس ويصطف عما يسبب له الألم ، فلهس القطة لاشك محبب للطفل لأن فراءها ناعم ، لكن لنفرض أن طفلاً أراد أن يتحسس قطة نخدشته ، فسيصيح عالياً ، وسيظهر علامات الخوف إذا ما ظهرت القطة أمامه ، مجرد ظهورها . وخوف الطفل من القطة سيظل يعمل فى معظم تصرفاته ، فإنه سيتهيب فى المستقبل كل الحيوانات ذات الفراء الناعم كالآرانب مثلاً ، بل ولا ندهش إذا وجدناه وهو شاب يافع يخشى الاقتراب

من سيدة تضع فراء أبيض حول كتفها في الشتاء ، ومثل هذا الشخص لن يتذكر السبب الأساسي الذي يجعله يتهيب مثل هذه الحيوانات ويسلك هذا السلوك .

وبالمثل يخشى الطفل الاستحمام لأنه حدث ، مثلاً ، أن دخل (الصابون) في عينيه مرة أثناء الاستحمام ، فشعر بالآلم ، فيقترب من الآلم حينئذ بالاستحمام . وقد يكره الطفل تناول نوع خاص من المأكولات ، وقد يكون السبب أنه أحس بطعم خاص عند ما أكله أول مرة ، وسبب هذا الطعم تقززاً عند الطفل .

هذه الأفكار لو ضمت إلى ما نعرفه من أن الطفل قليل الخبرة ضيق الأفق ، بحكم قصور عقله وصغر سنه وحدائته ، لوقفنا على الأهمية العظمى لمرحلة الطفولة . فإذا وجدنا شخصاً سريع الغضب والتهور فهذا مرجعه غالباً إلى أنه تعلم أن يغضب للتوافه والهنات وإذا كان كثير الكذب شغوفاً بسرده الآكاذيب فسبب هذا قد يكون تعوده الكذب في سني طفولته . ولهذا نقرر بشيء كثير من التأكيد أن العدد الكبير من الامراض النفسية ونواحي الشذوذ التي تعترى البالغين والراشدين ترجع أصولها وجذورها إلى سني الطفولة .

بعض النظريات عن طبيعة الطفل

أولاً : الطفل شرير بطبعه :

من أقدم المعتقدات عن طبيعة الطفل أنه شرير ، ويقال إن أساس هذه العقيدة يعود إلى القسيس أوجستين ، في القرن الخامس الميلادي ، فكان يرى أن كل كائن بشري يرث الخطيئة من آدم (الذي عصى أمر ربه) ولذلك فأحناد آدم يولدون وفيهم بذور الشر ، ولهذا الشر آثار تظهر في تصرفات الطفل وتصبغها بصبغة الشرور والآثام . ولا يمكن للشخص أن يتجنب هذه الآثار وينجو منها إلا بالخلص Salvation وقد ظل هذا الرأي سائداً خلال العصور الوسطى وكانت له الكلمة العليا في تفسير سلوك الطفل .

ويرى أنصار هذه النظرية أن كل رغبات وطلبات وحركات وسكنات الطفل إنما هي علامات وأدلة لطبيعته الشريرة ، فلعب الطفل مثلاً وكثرة حركته تؤخذ على أنها ظاهرة من مظاهر الشر المتوطن في نفسه ، ولذلك كان الواجب أن تكبت حريته وأن يخضع للنظام الصارم الشديد ، فلا غرو إذن إذ رأينا الطفل يخضع للقهرمانات والمؤدبين وعرفت السياط والعصى طريقها إلى جسم الطفل فتركت عليه آثاراً دامية وكدمات واضخة جليلة .

وهكذا قيدت حرية الطفل ولم يسمح له بالتحرك إلا بإذن ، وكان هذا في رأيهم هو الطريق الوحيد المؤدى إلى الخلاص من الشر الممتزج في دماء الطفل .

وظلت هذه السحابة القائمة تخيم على تربية الطفل وتحددها ولم يقدر لشمس حريته أن تبرز إلا على يد نصير الطفولة الأول جان چاك روسو فقد كانت آراؤه ومبادئه الشعاع الذى بدد ذلك الظلام الدامس ، فقد هاجم هذه النظرية بشدة وأعلن فى جرأة أن الطفل خير بطبيعته وأن الشر لا يأتيه إلا بمخالطته للمجتمع الفاسد وتأثير هذا المجتمع فى الطفل الخير .

هذا ويلوح لنا أن هذين الرأيين مبالغ فيهما ، ويظهر لنا أن الخير والشر يأتیان للطفل من الخارج ومن احتكاكه بغيره ، فطبيعته ليست خيرة وليست شريرة ، واسكن لتربيته ونشأته والوسط الذى يعيش فيه الأثر القوى فى ظهوره بمظهر الخير أو الشر .

وقد تقابل الآن من يحمى ويتحمس لنظرية طبيعة الطفل الشريرة ، وهؤلاء هم الذين يسومون الأطفال من ألوان العذاب الشئ الكثير ، وكلمة التربية ، عندهم مرادفة للعقاب البدنى وإذا ما رأيتهم وقد أمسكوا بالعصى وانحنوا على الأطفال (يؤدبون) لحكمت عليهم توباً بأنهم وحوش كاسرة لا بشر يفقهون ويرحمون .

ثانياً : الأفكار الفطرية :

هل يولد الأطفال ولهم القدرة على التمييز بين الخير والشر ، بين الصواب والخطأ ، لو كانت الإجابة بالإيجاب وأن الأطفال لهم هذه القدرة ، فلا بد وأن مرجعها وجود فكرة محددة عن الصواب والخطأ في عقل الطفل عند مولده أى أن هذه الفكرة فطرية لا تعلم . ظل المفكرون والفلاسفة يعتقدون هذه العقيدة ويعضدونها ، بل وأضافوا إليها أن الطفل عند ولادته يحتوى عقله على أفكار كثيرة في حالة كمون ، وتنشط وتظهر كلما كبر وزادت خبرته ومعارفه ^(١) .

حتى إذا كان القرن الثاني عشر وظهر جون لوك John Locke الفيلسوف الإنجليزي ناقش هذه النظرية ثم أعلن أن الأفكار الفطرية لا وجود لها وأن عقل الإنسان عند الولادة يكون صفحة بيضاء Tabula Rasa ثم تنقش عليه المعارف والمعلومات والخبرات سواء الخيرة منها أو الشريرة . وبذلك نرى أن لوك ينادى بأن المعرفة والحياة العقلية عموماً إن هى إلا نتاج للخبرة . ونلاحظ هنا أن رأيي روسو ولوك فيهما كثير من أوجه الشبه ، إذا استثنينا قول روسو بطبيعة الطفل الخيرة . لكنهما إتفقا في أثر البيئة والخبرة ورأيا أن لها الأثر الأقوى الفعال في

(١) لعل أساس هذه العقيدة يرجع إلى نظرية المثل الأرسطونية .

نمو الطفل . ولذلك فمن أهم الواجبات على المربين مد الأطفال
بالبيئة المناسبة الصالحة لنموهم .

ثالثاً : الطفل كرجل مصغر :

كان لهذه النظرية أثرها الفعال خلال القرنين الثامن والتاسع
عشر . فقد رأى المفكرون والمربون وقتئذ أن الطفل رجل
مصغر وأن تفكيره واهتمامه وميوله ونشاطه تماثل تلك التي
للكتمل النمو ، ولكن في دائرة أضيق وأصغر ، فكان الأطفال
يرتدون مثلما يرتدى الكبار ، ويخضعون للعايير الخلقية التي
يخضع لها الراشدون ، ويعاملون معاملتهم إذا ما ارتكبوا
هفوة^(١) .

وقد ورد في الإنجيل : « حينما كنت طفلاً كنت أتكلم كطفل
وكنت أفهم كطفل وكنت أفكر كطفل ، ولما صرت رجلاً
أبطلت أمور الطفولة^(٢) » .

وفرق بين هذا القول وبين هذه النظرية ، فللاطفال عالمه الخاص
به وللراشد عالمه الخاص به ، وليس من العدل أو الإنصاف أن
نتطلب من الطفل أن يعيش في عالم آخر غير عالمه ، فهذا ليس في
طاقته ولا استطاعته .

(٢) يلاحظ أن هذه الفكرة سائدة في ديننا المصري .

(٣) في الإصحاح الثالث عشر من رسالة (يولس) الأولى إلى أهالي كورينثوس .

وكما عارض روسو نظرية الطبيعة الشريرة ، عارض هذه النظرية أيضاً ونادى بأن الطفل ليس مصغر رجل ولكنه شخص في طريق النمو له ميوله ونشاطه الخاص . ونادى روسو بأننا نضحى بحاضر الطفل لمستقبل مجهول غير مضمون .

ومع ذلك فقد استمر المربون في معاملتهم الأطفال كرجال مصغرين وشكلوا نظمهم التربوية بحيث تعدهم لحياة الرجولة ، غير أن هذه الفكرة أخذت تتلاشى الآن بعد أن ثبت خطأها ، بل ويحاول علماء النفس الحديثين شرح سلوك وتصرفات الراشدين مستعينين في ذلك بسلوك وحياة الأطفال .

رابعاً : النظرية التلخيصية :

تبرأت هذه النظرية مركزاً ممتازاً بعد أن نشر داروين Darwin كتابه « أصل الأنواع » Origin of Species الذي قال فيه إن الحياة تطورت من الأشكال الدنيا إلى الأكثر رقياً خلال ملايين السنين ، وأن الإنسان الحلقة الأخيرة في هذا التطور . وقد تحمس لهذه النظرية كثير من المفكرين أمثال ستانلي هول G. Stanley Hall ، ورؤى أن نشاط الطفل ، وخاصة لعبه ، يمثل الأطوار التي مرت بها البشرية منذ فجر التاريخ إلى اليوم . فإذا رغب الطفل في تسلق شجرة مثلاً أخذت رغبته هذه على أنها حنين إلى الوقت الذي كان فيه أجداده الأوائل يعيشون بين الأشجار

ويعتمدون عليها في كثير من نواحي حياتهم ، وإذا أبدى الطفل شوقاً لممارسة ألعاب المطاردة والجري ، ترجم هذا الشوق إلى رغبة في تمثيل الفترة التي كان الإنسان فيها يعيش على الصيد واقتناص الحيوانات . وهكذا يرجعون تفسير معظم سلوك الأطفال إلى أمثلة للحياة خلال العصور التاريخية الغابرة .

ويتبين لنا أن هذه النظرية في حاجة كبيرة إلى النقد مما سنتعرض له في فصل اللعب ، وسيتبين لنا عدم إمكان قبولنا لهذه النظرية كمفسر لطبيعة ونشاط الطفل .

خامساً : عقدة النقص :

وقد نادى بها أدلر Adler واعتبرها القوة الدافعة لسلوك ونشاط الطفل ، فهو يقول : إن الأطفال يولدون ضعافاً ، وهذا يحتم على غيرهم أن يعنوا بهم ، وبذلك لا يمكننا فهم أسلوب حياة الطفل إلا بالرجوع إلى الأشخاص الذين كانوا يعنون به والذين يعرضونه عن قصوره وضعفه . كما أن للطفل علاقات مع أبيه وأسرته ، وهذه العلاقات لا يمكن إدراك كنهها إذا قصرنا بحثنا على الطفل من حيث هو جسم مادي في فراغ ؛ إذ الحقيقة أن شخصية الطفل تعترض فرديته الجسمية ويدخل فيها كل ما يحيط به من صلات إجتماعية . ثم يقارن الفريد أدلر بين ضعف الطفل الذي يضطره لأن يعيش في أسرة بالضعف الذي يضطر الناس

إلى أن يعيشوا في مجتمع ، فالإنسان بمفرده ضعيف لكنه قوى في جماعة ، وهذا بعكس الحالة عند الأسود والنمورة التي يمكنها أن تعيش بمفردها لأن الطبيعة قد وهبتها القدرة للدفاع عن نفسها ، وبذلك يعتبر ضعف الفرد هو منشأ الحياة الاجتماعية .

إذن فالفرد البشري ناقص ، ولذلك فمن أغراض علم النفس أن يعود الناس أن يعيشوا مع غيرهم على أحسن حال ليستعينوا بذلك على تخفيف آثار نقصهم الطبيعي . وشعور الفرد بالنقص يدفعه إلى أن يهدف إلى التفوق ، ولهذا نجد أن اهتمام الشخص أكثر ما يكون في الناحية التي يشعر فيها بقصوره ونقصه ، ويعمل جاهدا لتعويض هذا النقص .

ويضرب لنا أدلر مثالا لرجل كان لا يصاب بنوبات من الربو إلا حين يعود إلى منزله من مقر عمله في المساء ، وكانت ظروف الرجل كلها حسنة ، ولديه وظيفة محترمة وكان متزوجا وفي الخامسة والأربعين من عمره ، ولما سئل عن سبب إصابته بنوبات من الربو على الدوام بعد عودته من عمله ، أجاب : « أنا رجل مثالي ، لكن زوجتي مادية محضة ، ثم بين أنه كان يرغب دائما في الهدوء والراحة ، أما هي فكان كل همها غشيان المجتمعات ولذلك فهي دائمة الشكوى من بقائها في المنزل ، وهذا يؤدي إلى تضايقه ومن ثم تعثره نوبات الإختناق . وكان غريبا أن تصيبه نوبات إختناق

بالذات ، ولا يتقايأ مثلاً . وبعد البحث ظهر أنه عندما كان طفلاً كانت تلف أربطة حوله لأنه كان مصاباً بضعف ما ، وقد أثرت هذه الأربطة في مجاريه التنفسية ، وسببت له متاعب كثيرة ، غير أنه كانت له خادمة آثرته على نفسها وأولته من العناية ما خفف عنه الآما مبرحة ، وبذلك إنطبع في ذهنه أنه يجب عليه أن يُسلي وأن يسر . وقد حدث أن فارقت الخادمة لأنها تزوجت ، وكان هو إذ ذاك في الرابعة من عمره ، فتألم كثيراً لفراقها وبكى بكاء مرأ ، وعبر عن أثر فراقه لخادمتة بقوله : « الآن لم يبق لي في العالم ما أهتم به بعد أن فارقتني خادمتي » .

سلوك الخادمة معه في سنى طفولته جعله يتطلع دائماً إلى شخص يسرى عنه ويخفف عنه آلامه ويسليه ، وهو بذلك يصل إلى التفوق ونجاحه في ذلك يشعره بالسيطرة ، لكن وجود شخص تتوفر فيه هذه الشروط لم يكن سهلاً ولا متيسراً ، وعند ما تزوج لم يجد في زوجته الشخص المنشود ، بل كان همها لا العناية به (كما كانت تفعل الخادمة) بل رغبةا في الخروج والتمتع . وكان يتوق إلى الجلسة الهادئة المريحة في الوقت الذي كانت فيه زوجته تتحرق شوقاً لمغادرة المنزل وغشيان المجتمعات ، فرغبتها هنا تتعارض مع رغبته التي توصله إلى هدف التفوق ، وهنا كانت تظهر النوبات التي تعتريه فتهرع إليه زوجته لتواسيه وتخفف عنه

ما يشعر به من آلام ، ويجلس هو الجلسة الهادئة المريحة وإلى جانبه زوجته تمرضه ، وما أشبه هنا به عند ما كان في الرابعة وإلى جانبه خادمته تأنسه .

ويمكننا أن نلاحظ ميل الأطفال وسعيهم لبلوغ هدف التفوق فقد نجد أن بعضهم يرفض الذهاب إلى حيث يواجه مواقف جديدة ، ويفضل أن يعيش في الدائرة الصغيرة التي يشعر بتمكّنه من نفسه فيها . ولذلك نرى الأطفال الذين يشعرون شعوراً قوياً بالنقص يريدون أن يتعدوا عن هم أقوى منهم من الأطفال ، ويلعبوا مع من هم أضعف منهم ومع من يستطيعون إخضاعهم لسلطانهم ويسيطروا بذلك عليهم ، وهذا مظهر من مظاهر الشعور بالدونية أى النقص ^(١) .

إننا لا نقبل رأى أدلر هذا الذي ينسب فيه كل سلوك البشر إلى رغبة في التفوق والسيطرة ، فلا يمكننا منطقياً أن نعلل كفضاضة الطفل ونضاله لتخليص ساقه أو يده من شخص أمسك بها ، بأنه يهدف إلى التفوق ، ولا يمكننا كذلك أن نصف سلوك طفل أغاظه أقرانه وسخروا منه فألحق بهم ضرراً بأنه يروم الوصول إلى السيطرة ، بل المعقول أن نعلل ونبرر سلوكه هنا بأنه نتيجة

للحالة الراهنة التي وجد الطفل نفسه فيها (١) .
التطور الحديث في دراسة الطفل :

أخيراً فقط أعترف بالطفل كوحدة لها عالمها الخاص الذي يجب أن نعيش فيه ولها ميولها وأهواؤها التي يجب أن تظهر كلها أمكن ذلك ، ويتلخص التطور الحديث في دراسة الطفل في النقاط الأربعة الآتية (مع ملاحظة أن هذه النقاط ليست جامعة مانعة) :
أولاً : الإعتراف بأهمية وخطورة الفروق الفردية :

أثبتت أبحاث علم النفس الحديث وجود فروق جوهرية بين الأطفال في القوى العقلية وفي المزاج وفي النمو الجسمي ، وكان الغرض الذي يهدف إليه الباحثون والمجربون هو الحصول على قوانين عامة تطبق على كل الأطفال ، ويخضع لها كل الأطفال أما من يفشل في مسايرتها فهو شاذ يجب إبعاده ، وبذلك إنحصرت التربية واقتصرت على الطفل المتوسط العادي ، واستبعد كل طفل دون المتوسط أو أعلى من المتوسط ، وفي هذا إجحاف وأى إجحاف لهؤلاء (الشواذ) الذين يجب أن ينالوا من العناية مثلما يناله الطفل العادي ، بل وأكثر . غير أن الأنظار قد اتجهت — حديثاً — نحو هؤلاء الشواذ ولعله من الطريف أن نذكر أن

(١) كتابات أدلر عن السيطرة كانت رداً للكتابات فرويد التي أعلن فيها الأهمية العظمى والأساسية للغريزة الجنسية ولا كان تفسير كل أنواع السلوك الإنساني على أساسها .

حقائق كثيرة عن الطفل العادى عرفت بعد دراسة الشواذ . وقد أعطيت لكل طفل الفرصة لكي ينمو ونمواً صحيحاً متناسباً مع قواه ، وأعطيته لكل طائفة نوع التعليم الذى تصلح له ، والذى تحتاجه . وبذلك صار الطفل هو محور الإهتمام والمركز الذى تدور حوله أبحاث التربية والمناهج الدراسية .

وقد راعى أفلاطون فى جمهوريته الفروق الفردية بين البشر إذ نادى بأنه لا يوجد متماثلان فى طبيعتهما ، وأن قدرات الأطفال مختلفة متباينة . هذا يجعلنا نرفض رفضاً باتاً فكرة معاملة الأطفال كلهم معاملة واحدة ثم ننتظر منهم سلوكاً واحداً متشابهاً ، فهذا غير متيسر للأسباب الآتية : —

١ — اختلاف البيئة : فلا شك فى أن الطفل الذى يعتنى به فى المنزل ونجاب حاجاته وتهدأ له الظروف الصالحة للنمو الصحيح المتزن ، طفل كمذا يختلف حتماً عن آخر نشأ فى بيئة لا تراعى حاجات الطفولة بل ينتشر الجمل فيها .

ب — اختلاف القدرات الفطرية بين طفل وآخر ، فلا تنتظر من طفل ضعيف الذكاء أن يفهم قضية ما بمثل السرعة التى يفهم بها آخر ذكاؤه مرتفع ، ولا نتوقع أننا سنجد فى الفصل المدرسى الأطفال كلهم أو معظمهم فى مستوى ذكاء واحد .

ح — الاختلاف فى الخلق والمزاج : ولنفرض جدلاً أننا

وجدنا مجموعة متجانسة في قوة الذكاء : فإننا لا ننظر أن يكون
تحصيلهم الدراسي واحداً وبدرجة متساوية ، وذلك لأن بعضهم
يميل إلى الكسل والبعض يميل إلى العمل والمثابرة والتحصيل .
ثانياً : مراعاة الحوافز :

كثيراً ما يتساءل الوالد : كيف يمكنني أن أجعل ابني يفعل كذا
وكذا ؟ ، وعلم النفس الحديث لا يقبل السؤال بهذه الصيغة فهو
لا يريد حافزاً أو دافعاً يدفع الطفل إلى العمل ويجبره عليه ويضطره
إليه ، بل إنه يريد من الطفل أن يعمل من تلقاء نفسه يفعل الشيء
لأنه يريد هو أن يعمل ولذلك فتكون الصيغة المثلى للسؤال هي :
كيف أجعل ابني يريد أن يفعل كذا وكذا ؟ ، ويمكننا بسهولة
معرفة السبب الذي يدفع الأطفال إلى ميلهم لعمل شيء وصدوفهم
عن إتيان آخر ، وبذلك تكون التربية المجدية هي التي تتمشى ، إلى حد
بعيد جداً ، مع ما يميل إليه الطفل وتبتعد عما يصدف عنه ، وبذلك
يعمل الطفل من تلقاء نفسه دون ضغط خارجي ، وهذا هو العمل
المجدي المثمر .

لعل هذا هو الدافع الذي حدا برجال التربية إلى محاولتهم
دواماً إشعار التلاميذ بأن العمل المدرسي ليس شيئاً مفروضاً
عليهم ، بل هو نوع من النشاط يعمل لصالحهم ونفعهم ، وهذا
يمكنهم من توسيع آفاقهم العلمية وتزويدهم بقدر ومحتوى من

المعلومات أكثر مما كانت تمنحهم إياه المدرسة القديمة . هذا بالإضافة إلى أن المواد الدراسية التي تقدم لتلاميذ اليوم أفيد وأثمر في إعدادهم للحياة في المجتمع من مواد الأمس . ولذلك فهم دائبون على جعل العمل المدرسي شيئاً من ذات التلاميذ وسبيلهم إلى ذلك خطة مزدوجة تلخص في حسن إختيار مواد الدراسة بحيث تلائم حاجات الأطفال ، وفي إشعار الأطفال بأنهم في مسيس الحاجة إلى تلك المواد ^(١) .

ثالثاً : مراعاة حاجات الطفل :

وهذه الفكرة ولادة الآراء الحديثة عن طبيعة الطفل وعن استعداداته الفطرية وعن كونه كائناً حياً ، ومن صفات الكائن الحي القابلية للتفاعل مع البيئة التي يعيش فيها ، وقدرته على التعلم . ولهذا كان الطفل منذ نعومة أظفاره يعمل جاهداً لاستكشاف غوامض وخفايا البيئة التي وجد نفسه فيها ، فهو في حاجة إلى معرفة كل ما يحيط به وكشف سره .

ويرى المربون المحدثون أنه من واجب المربي أن يعرف حاجات الطفل حتى يقدمها له ، وهذه الحاجات مثل ^(٢) : —

(١) الحاجة إلى النمو الجسمي والعقلي : تظهر حاجة الطفل

(١) George E: Freeland: Modern Elementary School practice ch. 4.

(٢) عبد العزيز عبد المجيد وصالح عبد العزيز: التربية وطرق التدريس ج ١ ص ٣١٤

إلى النمو الجسمي في غريزة البحث عن الطعام وهي أول الغرائز ظهوراً ، والطفل في حاجة ماسة إلى الغذاء الصحي الكافي وإلى الدفء والشمس والهواء والمسكن المريح والنوم والراحة واللعب. ولكل طفل حاجات تختلف باختلاف سنه وحالته الصحية ، فما يحتاج إليه طفل من الغذاء والنوم مثلاً في السنة الأولى من حياته يختلف عما يحتاج إليه في الخامسة من عمره مثلاً . والطفل عقب المرض يحتاج إلى نوع وقدر من الغذاء غير ما يحتاج إليه في حالة الصحة .

أما حاجته إلى النمو العقلي فتظهر في غريزة حب الاستطلاع والحل والتركيب ، فهو ميال إلى الكشف وإلى التعلم وتقليد غيره . وهذه حاجة ضرورية للمحافظة على بقائه وخلق التناسق بينه وبين البيئة التي تؤثر فيه .

(ب) الحاجة إلى الحرية : ونقصد بالحرية أن نترك الطفل حراً ، في حدود ، للتعبير عن ميوله وغرائزه والتعبير يكون بصور مختلفة منها اللعب والحركة والكلام والرقص والتمثيل والرسم ... الخ ووظيفة المربي الصالح هي تشجيع الطفل على العمل التلقائي والتعبير عما في نفسه ، ويمكن للحلل النفسي أن يترجم حركات ورسوم الطفل ولعبه وفلتات لسانه إلى ما تعنيه ، هذا إذا ترك الطفل ليعبّر تعبيراً حراً عما يشعر به ويحس به في قرار نفسه .

ح - الحاجة إلى التوجيه السليم والقيادة الصحيحة: إذا تركت الغريزة دون رقيب كانت وبالاً مستطيراً ، وإذا ترك الطفل وحده دون تقييد فقد يأتي أموراً أبعد ما تكون عن الصواب ، لهذا فهو في حاجة إلى سلطة موجهة توجهه إلى الطريق القويم المستقيم ، وتبعده عما يضره ويضر غيره ، فمثلاً : غريزة حب الاستطلاع إذا تركت وشأنها فقد تصل بالطفل إلى النجس والتطفل وكتاتهما عادتان مرذولتان . والطفل بحكم قصور عقله وقلة تجاربه وخبرته محتاج إلى شيء من معونتنا وتوجيهنا نحن الكبار .^(١) فيجب إذن أن تكون القيادة حازمة صارمة في غير قسوة أو عنف ، بل الغرض هو ألا يحيد الطفل عن الطريق الصحيح السوي . وتمثل القيادة الصحيحة في مدارس الدكتور ماريا منتسوري المعروفة بمنازل الأطفال^(٢) فمن حق كل طفل أن يختار من اللعب ما يشاء على شرط ألا يغتصب لعبة غيره أو يتدخل في أعمال غيره ، وله الحرية في أن يعمل ما يشاء بشرط ألا تتعارض هذه الحرية مع حريات غيره فلا يزعمهم أو يضايقهم .

و - الحاجة إلى الطمأنينة والأمن من الناحيتين : الجسمية والعقلية : فيجب أن يشعر الطفل بالأمن والطمأنينة حتى يستطيع أن

(١) كما قال فروبل .

Casa de Bambini (٢)

ينمو نمواً منظماً صحيحاً ، وإلا لو كان مهدداً بخطر ما خوفاً من عقاب مثلاً ، فإنه لن يقدم على حل مشكلة من المشاكل التي تعترضه ولن يكون في أعباءه حراً يعبر عما في نفسه خوفاً من الخطر الذي يهدده ، وبذلك يضع هذا الخوف العراقيل والعقبات في طريق نموه النمو الصحيح . ولذلك فيجب أن يحس ويشعر الطفل بالأمن والطعام نينة وأن يعطى الثقة في نفسه حتى يقبل على العمل معضداً بشعور الأمن بعيداً كل البعد عن مشيرات الخوف والإضطراب .

هـ — الحاجة إلى الحب والعطف : يجب أن نفرق بين الحب والعطف وبين التعزيز والتدليل ، فحب الوالدين لأطفالهم أمر غريزي وهذا يدفعهم إلى تربيتهم ورعايتهم ، ولكن الإسراف في هذا الحب ضار بخلق الطفل إذ يجعله كثير الاعتماد على غيره وخاصة من يدلله والطفل في حاجة إلى أن يحب وأن يعطف عليه ، والطفل يميل إلى من يحبه ويقبل عليه ، ولذلك فالطفل يصاب بصدمة في آماله عندما ينتقل من الروضة حيث تعامله المدرسة باللين والعطف ، إلى المدرسة الابتدائية حيث يجد في المدرس جفاء الطبع والجدة في المعاملة ، ومن الملاحظ أنه كلما كانت الصلة بين المدرس وتلاميذه صلة حب وعطف كلما كان إقبالهم على دروسه أكثر واستيعابهم لها أسهل وأثبت .

رابعاً : العمل على تكامل شخصية الطفل : لم تعد التربية الحديثة قاصرة على تعليم الأطفال القراءة والكتابة وحل مسائل الحساب

ومعرفة الحوادث التاريخية والحقائق الجغرافية . . الخ فهي كل هذا وأكثر ، إنها ترمى إلى تربية الطفل وتنميته في كل ناحية من نواحي الحياة حتى يكون شخصاً متكامل الشخصية خالياً من الشذوذ — إن أمكن ذلك . وقد نجد شخصاً يحمل أرقى المؤهلات العلمية ثم يقع في مأزق فلا يجد مخرجاً ويهرع طالباً نجدة من صديق أو قريب ليخلصه من هذا المأزق الذي عجز عن تخليص نفسه منه ، وفي الغالب نجده لم يفكر تفكيراً منطقياً سليماً جدياً في حل يخلصه مما وقع فيه . وقد نجد شخصاً آخر يلقي التبعة على غيره ويرفض تحمل المسؤولية ويهرب منها كثير الاعتماد على غيره ، يسأل عن أبسط الأشياء ولا يثق بقدرته في القيام بأي عمل . مثل هذا الشخص كسابقه لا يحذر بنا أن نصفه بأنه متعلم مثقف . ولذلك كان من أوليات التربية الحديثة مراعاة توحيد الأطفال مواجهة مشاكل الغد وشنش أوقات فراغهم فيما ينفعهم وينفع وطنهم ؛ أو بمعنى آخر أضيف إلى أغراض التربية الحديثة غرض جديد وهو الصحة العقلية للطفل .

المراجع

- ١ — الفريد أدلر : الحياة النفسية (ترجمة محمد بدران) .
- ٢ — سوزان أيزاكس : الحضارة (ترجمة سميرة فهمي) .
- ٣ — « » : الطفل في المدرسة الابتدائية (ترجمة محمد مختار متولى)
- ٤ — عبد العزيز القوصي : أسس الصحة النفسية .
- ٥ — « » : مذكرات غير مطبوعة ألقيت بمعهد التربية عامي ١٩٤٦ و ١٩٤٧ .
- ٦ — عبد العزيز عبد المجيد وصالح عبد العزيز : التربية وطرق التدريس ج ١ .
- 7— Adler, Al Fred : The Education of Children.
- 8 — Binet : Les Idées Modernes sur Les Enfants.
- 9— Brooks : Child Psychology.
- 10— Buhler, C. : From Birth to Maturity
- 11— Freeland, G.E. : Modern Elementary School Practice. ch. 4.
- 12— Merry : From Infancy to Adolescence.
- 13— Steiner : L'education de l'enfant.
- 14 — Williams, J Guilfoyle : The Psychology of Childhood to Maturity